صفحات مشرقة من سيرة الأم المسلمة

جمع وترتيب

محمد بن أحمد بن إسماعيل

مصدر هذه المادة :







بسم الله الرحمن الرحيم

الأم المسلمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾(١).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي

---

(١) سورة آل عمران: آية (١٠٢).
(٢) سورة النساء: آية (١).
(٣) سورة الأحزاب: آية (٧٠-٧١).

محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار [١].

أما بعد:

فقد أوصى الله تعالى في مواضع من كتابه بالإحسان إلى الوالدين، وقرنه بالأمر بعبادته والنهي عن الشرك به، وأمر بالشكر لهما متصلاً بالشكر له وخص الأم بالذكر في بعض هذه الوصايا للتذكير بزيادة حقها على حق الأب.

قال تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**﴾[٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد البر بهما مع اللطف، ولين الجانب، فلا يغلظ لهما في الجواب، ولا يُحِد النظر إليهما، ولا يرفع صوته عليهما، بل يكون بين يديهما مثل العبد بين يدي السيد تذللاً لهما»[*].

وقال تعالى: ﴿**وَقَضَى**[٣] **رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ**

(١) هذه هي خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يستفتح بها خطبه ودروسه ومواعظه وللعلامة الألباني رسالة فيها فراجعها.اهـ.

(٢) سورة النساء: آية (٣٦).

(*) (الزواجر عن اقتراف الكبائر) (٦٦/٢)

(٣) قضى هنا بمعنى: أمر، وألزم، وأوجب، قال ابن عباس والحسن وقتادة: «ليس هذا قضاء حكم، بل هو قضاء أمر».اهـ (من الجامع لأحكام القرآن) (٢٣٧/١٠).

مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[١].

قوله تعالى: **﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾** قال البغوي رحمة الله: [يريد: لا تقل لهما ما فيه أدنى تبرم، والأف والتف: وسخ الأظفار، ويقال لكل ما يستثقل ويضجر منه: أف له، قال مجاهد: (لا تقذرهما كما كانا لا يقذرانك)][٢].

وقال الهيثمي رحمه الله تعالى:

[**﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾** ثم أمر بأن يقال لهما القول الكريم: أي اللين اللطيف المشتمل على العطف والاستمالة وموافقة مرادهما وميلهما ومطلوبهما ما أمكن سيما عند الكبر، فإن الكبير يصير كحال الطفل وأرذل؛ لما يغلب عليه من الخرف وفساد التصور، فيرى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، فإذا طلبت رعايته وغاية التلطف به في هذه الحالة، وأن يتقرب إليه بما يناسب عقله إلى أن يرضى؛ ففي غير هذه الحالة أولى.][٣].

قال أبو البداح التحيبي:

(قلت لسعيد بن المسيب: (كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته، إلا قوله: **﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾** ما هذا القول الكريم؟)، قال ابن المسيب: (قول العبد المذنب للسيد الفظّ الغليظ)[٤].

---

(١) سورة الإسراء: آية ٢٣-٢٤.
(٢) (شرح السنة) (١٣/١٥)، وانظر: (فضل الله الصمد) (١/٦٠-٦١).
(٣) (الزواجر عن اقتراف الكبائر) (٢/٦٦).
(٤) (الجامع لأحكام القرآن) (١٠/٢٤٣).

[وقوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾قال عطاء: (لا ينبغي لك أن ترفع يديك على والديك، ولا إليهما تعظيما لهما) وقال عروة: (لا تمتنع من شيء أحباه)][(١)].

فينبغي للإنسان – بحكم هذه الآية – أن يتذلل لوالديه تذلل الرعية للأمير، والعبيد للسادة، وقد ضرب خفض الجناح ونصبه مثلاً لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده.

[ثم أمر تعالى بعد القول الكريم بأن يخفض لهما جناح الذل من القول بأن لا يكلما إلا مع الاستكانة والذل والخضوع وإظهار ذلك لهما، واحتمال ما يصدر منهما، ويريهما أنه في غاية التقصير في حقهما وبرهما، وأنه من أجل ذلك ذليل حقير، ولا يزال على نحو ذلك إلى أن يثلج خاطرهما، ويبرد قلبهما عليه، فيعطفا عليه بالرضا والدعاء، ومن ثم طلب منه بعد ذلك أن يدعو لهما، لأن ما سبق يقتضي دعاءهما له كما تقرر، فليكافئهما إن فرضت مساواة، وإلا فشتان ما بين المرتبتين[(٢)]، وكيف تتوهم المساواة، وقد كانا يحملان أذاك وكلك وعظيم المشقة في تربيتك، وغاية الإحسان إليك، راجين حياتك، مؤملين سعادتك، وأنت حملت شيئا من أذاهما رجوت موتهما، وسئمت من مصاحبتهما، ولكون الأم أحمل لذلك وأصبر عليه مع أن عناءها أكثر وشفقتها أعظم بما قاسته من حمل وطلق وولادة ورضاع وسهر ليل، وتلطخ بالقذر والنجس، وتجنب للنظافة والترفه، حض النبي ﷺ على برها ثلاث مراتب، وعلى بر

(١) (شرح السنة) (١٥/١٣)، وانظر: (فضل الله الصمد) (١/٦٠-٦١).
(٢) انظر: (فضل الله الصمد) (١/٤١).

الأب مرة واحدة كما في الحديث الصحيح][1].

***تنبيه:**

لا يختص بر الوالدين بكونهما مسلمين، بل يبرهما وإن كانا كافرين، ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد، قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ**﴾[2] الآية.

وعن أسماء رضي الله عنها قالت: (قدمت علي أمي — وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم — فاستفتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله ! قدمت على أمي — وهي راغبة - [3] أفأصل أمي: «**نعم صلي أمك**» [4].

وقال سبحانه:

﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ**[5]

(١) (الزواجر) (٢/٦٦).

(٢) سورة الممتحنة: آية (٨).

(٣) أي في بري وصلتي، وقيل: راغبة عن الإسلام كارهة له، قال ابن عطية: (والظاهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لتقدم على أسماء لولا حاجتها) أ.هـ من (الجامع لأحكام القرآن) (١٤/٦٥) وأم أسماء هي قتيلة بنت عبد العزي بن عبد أسد، وأم عائشة وعبد الرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام. .

(٤) رواه البخاري (١٣/١٧-١٨) في الأدب:باب صلة الوالد المشرك وفي الهبة، والجهاد، ومسلم رقم (١٠٠٣) واللفظ له، في الزكاة: باب فضل الصدقة على الأقربين ولو كانوا مشركين، وأبو داود رقم (١٦٦٨) في الزكاة: باب الصدقة على أهل الذمة.

(٥) أي حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفا على ضعف، وقيل: المرأة ضعيفة الخلقة، ثم يضعفها الحمل، ثم تعاني الوضع، ثم الرضاعة والتربية.

وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[(١)]. وقال عز وجل: **﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[(٢)].

فإذا أمر الله تعالى بمصاحبة هذين بالمعروف مع هذا القبح العظيم الذي يأمران ولدهما به، وهو الإشراك بالله تعالى، فما الظن بالوالدين المسلمين سيّما إن كانا صالحين، تالله إن حقهما لمن أشد الحقوق وآكدها، وإن القيام به على وجه أصعب الأمور وأعظمها، فالموفق من هدي إليها، والمحروم كل المحروم من صرف عنها، وقد جاء في السنة من التأكيد في ذلك ما لا تحصى كثرته، ولا تحد غايته، فمن ذلك:

*ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»قال ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»[(٣)].

وعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**إن الله يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم بأمهاتكم، ثم يوصيكم**

---

(١) سورة لقمان: آية (١٤).

(٢) سورة لقمان: آية(١٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٣/٤-٦) في الأدب: باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ومسلم رقم (٢٥٤٨) في البر: باب بر الوالدين.

بآبائكم، ثم يوصيكم بالأقرب فالأقرب» [١].

*وعن أبي رمثة رضي الله عنه قال: (انتهيت إلى رسول الله ﷺ فسمعته يقول: «**بر أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك**» [٢].

*وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (سألت النبي ﷺ: «**أي الأعمال أحب إلى الله؟**» قال: «**الصلاة على وقتها**»، قلت: «**ثم أي؟**» قال: «**ثم بر الوالدين**» قلت: «**ثم أي؟**» قال: «**ثم الجهاد في سبيل الله**» قال: «**حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني**») [٣].

فأخبر ﷺ أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التي هي أعظم دعائم الإسلام، ورتب ذلك بـــ (ثم) التي تقتضي الترتيب والمهلة.

*و عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لرجل استأذنه في الجهاد: «**أحي والداك؟**» قال (نعم) قال

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (٦٠) واللفظ له، وابن ماجة (٣٦٦١) والحاكم (١٥١/٤) والإمام أحمد (١٣١/٤، ١٣٢) وصححه الألباني في (الصحيحة) رقم (١٦٦٦).

(٢) أخرجه الحاكم (١٥١/٤) واللفظ له، والإمام أحمد (٢٢٦/٢) وصححه الألباني في (إرواء الغليل) (٣٢٢/٣) وتأمل كيف قدم الأم على الأب، وكذا قدم الأخت على الأخ.

(٣) رواه البخاري في مواقيت الصلاة وفضلها: باب فضل الصلاة لوقتها، وفي الجهاد والسير، وفي الأدب، وخرجه مسلم واللفظ له في الإيمان رقم (١٣٩).

«**ففيهما فجاهد**»[1] وفي رواية لمسلم قال: (أقبل رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: (أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله) قال «**فهل من والديك أحد حي؟**» قال (نعم، بل كلاهما حي) قال «**فتبتغي الأجر من الله؟**»قال: (نعم)، قال: «**فارجع إلى والديك فأحسن صحبتها**» وفي رواية أخرى لأبي داود والنسائي عنه رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال (جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان) قال: «**فارجع إليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما**» وعنه أيضا أن النبي ﷺ قال: «**رضى الرب في رضى الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد**»[2].

تنبيه:

قال الغزالي: (من يخدم أبويه ينبغي أن لا يطلب بخدمته منزلة عندهما إلا من حيث إن رضى الله في رضى الوالدين، ولا يجوز له أن يُرائى بطاعة لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في

---

(١) رواه البخاري (٦/٩٧-٩٨) في الجهاد: باب الجهاد بإذن الأبوين، وفي الأدب، ومسلم رقم (٢٥٤٩) في البر والصلة: باب بر الوالدين، وأبو داود رقم (٢٥٣٠) في الجهاد: باب في الرجل يغزو، وأبواه كارهان، والترمذي رقم (٦١٧١) في الجهاد: باب فيمن خرج في الغزو وترك أبويه، والنسائي (٦/١٠) في الجهاد: باب الرخصة في التخلف لمن له والدان (٧/١٤٣) في البيعة: باب البيعة على الهجرة، وهذا محمول على ما لم يتعين الجهاد كأن يقع النفير، فإذا وقع وجب الخروج على الجميع.

(٢) رواه الترمذي رقم (١٩٠٠) في البر والصلة: باب ما جاء في بر الوالدين، وأخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/٤٢) وصححه ابن حبان (٢٠٢٦-موارد) والحاكم (٤/١٥٢) وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبي.

الحال، وسيكشف الله عنه ريائه فتسقط منزلته من قِبلهما أيضاً)[١].

*وعن معاوية بن جاهمة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ! أردت أن أغزو، وقد جئت استشيرك، فقال: «**هل لك أم؟**» قال (نعم) قال «**فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها**»[٢]).

*وعن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: (مر على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحابه من جلده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله؟)

فقال رسول الله ﷺ «**إن كان خرج يسعى على أولاده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان**»[٣].

---

(١) نقلا من (فضل الله الصمد) (١/١١١).

(٢) رواه النسائي (٦/١١) في الجهاد: باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، وابن ماجة رقم (٢٧٨١) والحاكم (٤/١٥١)، وصححه، ووافقه الذهبي، والإمام أحمد (٣/٤٢٩) وعبد الرزاق في (المصنف) (٥/١٧٦) وذكره الهيثمي في (المجمع) (٨/١٣٨) وقال: (رواه الطبراني في (الأوسط) ورجاله ثقات) أ.هـ. وانظر: (الترغيب والترهيب) (٣/٣١٦).

(٣) (أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاث، ورجال الكبير رجال الصحيح) أ.هـ كذلك قال الهيثمي في (المجمع)، والمنذري في (الترغيب والترهيب) ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بالصحة، (فيض القدير) (٣/٣١) وصححه الألباني في (صحيح الجامع) (٢/٨)..

*(وروي عن أبي عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: «**يا رسول الله، إني أصبت ذنباً عظيما، فهل لي من توبة؟، فقال: هل لك من أم؟ قال لا، قال:** «**فهل لك من خالة؟**» قال نعم، قال: «**فبرها**»[١].

*قال البغوي: [وقد صح عن البراء عن النبي ﷺ قال «**الخالة بمنزلة الأم**»[٢].

*وقال مكحول: (بر الوالدين كفارة للكبائر، ولا يزال الرجل قادراً على البر ما دام في فصيلته من هو أكبر منه)][٣]

*وعن عطاء بن يسار عن ابن عباس: (أنه أتاه رجل فقال: إني خطبت امرأة، فأبت أن تنكحني، وخطبها غيري فأحبت أن تنكحه، فغرت عليها، فقتلتها، فهل لي من توبة؟) قال: «أمك حية؟» قال (لا) قال: «تب إلى الله عز وجل، وتقرب إليه ما استطعت»، فذهبت فسألت ابن عباس: (لم سألته عن حياة أمه؟)

---

(١) رواه الترمذي رقم (١٩٠٥) في البر والصلة: باب بر الخالة، مرسلاً، ومسنداً، وقال: (إن المرسل أصح) وأما المتصل فصححه ابن حبان (٢٠٢٢- موارد) والحاكم (١٥٥/٤) بلفظ (والدان) وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، ورواه الإمام أحمد (١٤/٢) واللالكائي رقم (١٩٦٨).

(٢) رواه الترمذي رقم (١٩٠٥) في البر والصلة: باب بر الخالة، وقال: (هذا حديث صحيح) والحديث رواه في قصة طويلة البخاري (٣٨٥/٧-٣٩١) في المغازي: باب عمرة القضاء وفي الحج. والصلح، والجهاد، ومسلم رقم (١٧٨٣) في الجهاد: باب صلح الحديبية في الحديبية.

(٣) (شرح السنة) (١٣/١٣).

فقال: «إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من بر الوالدة»[(١)].

*وعن طيسلة بن مياس قال: (كنت مع النجدات[(٢)] فأصبت ذنوباً لا أراها إلا من الكبائر، فذكرت ذلك لابن عمر، قال: ما هي؟ قلت:كذا وكذا، قال: ليست هذه من الكبائر) إلى أن قال: (قال لي ابن عمر: أتفرق من النار، وتحب أن تدخل ؟ قلت: أي والله ! قال: أحي والداك؟ قلت: عندي أمي، قال: فو الله لو ألنت لها الكلام، وأطعمتها، لتدخلن الجنة، ما اجتنبت الكبائر)[(٣)].

*وعن أبي هريرة مرفوعاً: «**رغم أنفه** [(٤)]، **رغم أنفه، رغم أنفه، قيل: من يا رسول الله؟ قال: من أدرك أبويه عند الكبر: أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة**»[(٥)].

وعدّ النبي ﷺ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، وخص الأمهات بالذكر، فقال ﷺ: «**إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات،**

---

(١) رواه البخاري في (الأدب المفرد) رقم (٤) والبيهقي، واللالكائي في (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) رقم (١٩٥٧).

(٢) فرقة من الخوارج، تنسب إلى نجدة بن عامر الحنفي، انظر (الملل والنحل) للشهرستاني (١٢٢/١-١٢٥).

(٣) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) رقم (٨) والطبري في (التفسير) وعبد الرزاق الخرائطي في (مساوئ الأخلاق) كما في حاشية (فضل الله الصمد) (٥٩/١).

(٤) رغم أنفه: الرغام: التراب، ورغم أنفه: أي لصق بالتراب والمعنى: ذل وخزي من قصر في برهما عند ذلك وفاته دخول الجنة.

(٥) رواه مسلم (٢٥٥١) في الأدب: باب رغم أنف من أدرك أبويه فلم يدخل الجنة والبخاري في (الأدب المفرد) (٨٦/١) والترمذي رقم (٣٥٣٩) في الدعوات: باب رقم (١١٠)، وحسنه، والإمام أحمد (٣٤٦/٢).

ومنعاً وهات، ووأد البنات، وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»[(١)].

*وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً – قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** »وكان متكئاً فجلس، فقال: «**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور**» فمازال يقولها حتى قلنا: لا يسكت)[(٢)] وفي رواية: «حتى قلنا: ليته سكت» يعني: قلناها إشفاقاً عليه، لما رأوا من انزعاجه ﷺ.

*وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الكبائر شتم الرجل والديه**»، قالوا: يا رسول الله! وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه في الزكاة: باب قول الله تعالى: { **لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** }. (٢٧٠/٣) وفي الأدب: باب عقوق الوالدين من الكبائر، ومسلم واللفظ له، رقم (٥٣٩) وفي الأقضية: باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

(٢) رواه البخاري (١٩٣/٥) في الشهادات: باب ما قيل في شهادة الزور، وفي الأدب: باب عقوق الوالدين من الكبائر، وفي الاستئذان، وفي استتابة المرتدين، ومسلم رقم (٨٧) في الإيمان: باب بيان الكبائر وأكبرها، والترمذي رقم (٢٣٠٢) في الشهادات: باب ما جاء في شهادة الزور.

(٣) رواه البخاري (٣٣٨/١٠) في الأدب: باب لا يسب الرجل والديه، ومسلم وقم (٩٠) في الإيمان: باب بيان الكبائر وأكبرها، والترمذي رقم (١٩٠٣) في البر: باب ما جاء في عقوق الوالدين، وأبو داود وقم (٥١٤١) في الأدب: في بر الوالدين.

وقد كان من أشد ما يؤلم نفسه الكريمة ﷺ: أن يسمع الرجل يعير الرجل بأمه، وآية ذلك ما حدث المعرور بن سويد. قال: (رأيت أبا ذر الغفاري، وعليه حلة، وعلي غلامه حلة، فسألناه عن ذلك، فقال: «إني سابت رجلا، فشكاني إلى النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ «**أعيرته بأمه! إنك امرؤ فيك جاهلية**» ثم قال: «**إن خدمكم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم**»(١).

*وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «**من الكبائر عند الله تعالى أن يستسب الرجل لوالده**»(٢).

*وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: (لا تمشين أمام أبيك، ولا تجلس قبله، ولا تدعه باسمه، ولا تستسب له)(٣).

---

(١) رواه البخاري (١/٨٠، ٨١) في الإيمان: باب المعاصي من أمر الجاهلية، وفي العتق، والأدب، ومسلم رقم (١٦٦١) في الأيمان: باب إطعام المملوك مما يأكل، وأبو داود الأرقام (٥١٥٧)، (٥١٥٨)، (٥١٦١) في الأدب: باب حق المملوك.

(٢) رواه البخاري ٠في الأدب المفرد، رقم (٢٨) والمعنى: أن يكون سبب لسب الأبوين سواء سب أحدا أو آذى أحدا.

(٣) رواه البخاري في (الأدب المفرد) رقم (٤٤) وعبد الرزاق في مصنفه، والبيهقي، وابن السني مرفوعاً رقم (٣٩٧).

[فصل]

بر الوالدين بعد موتهما

*عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان** [١] **انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٢].

*وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**خير ما يخلف الرجل من بعده ثلاث: ولد صالح يدعو له، وصدقة تجري يبلغه أجرها، وعلم يُعمل به من بعده**»[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «**ترفع للميت بعد موته درجة، فيقول: أي رب! أي شيء هذه؟ فيقال: ولدك استغفر لك**».[٤].

---

(١) أي المؤمن فقد بينت السنة اشتراط كون الأب مؤمنا موحداً كما يأتي إن شاء الله.

(٢) رواه مسلم رقم (١٦٣١) في الوصية: باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، وأبو داود رقم (٢٨٨٠) في الوصايا: باب ما جاء في الصدقة عن الميت، والترمذي رقم (١٣٧٦) في الأحكام: باب في الوقف، والنسائي (٦/٢٥١) في الوصايا: باب فضل الصدقة عن الميت، والطحاوي في (مشكل الآثار) (١/٨٥) والبيهقي (٦/٢٧٨) والإمام أحمد (٢/٣٧٢).

(٣) أخرجه ابن ماجة (١/١٠٦) وابن حبان في (صحيحه) رقم (٨٥،٨٤) والطبراني، في (المعجم الصغير) ص (٧٩) وابن عبد البر في (جامع بيان العلم) (١/١٥). وصحح إسناده الحافظ المنذري في (الترغيب) (١/٥٨).

(٤) أخرجه ابن ماجة (٢٦٦٠) والإمام أحمد (٢/٥٠٩) والبخاري في (الأدب المفرد) (١/٣٦) وقال: البوصيري في (الزوائد) (إسناده صحيح ، رجاله ثقات (٣/١٥٩) وحسنه الألباني في (الصحيحة) رقم (١٥٩٨) (٤/١٢٩). .

ومن البر بهما بعد موهما: قضاء صوم النذر أو الكفارة عنهما:

*فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات وعليه صيام، صام عنه وليه**»[١].

ومن البر بهما بعد موهما: التصدق عنهما.

*فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: للنبي ﷺ: (إن أمي توفيت أينفعها إن تصدقت عنها؟) قال: «**نعم**»، قال: (فإن لي مخرفا، فأنا أشهدك أني قد تصدقت به عنها)[٢].

*وعن عائشة رضي الله عنها: (أن رجلاً قال: إن أمي أفتلتت[٣] نفسها و لم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها ولي أجر؟ قال: «**نعم، فتصدق عنها**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨/٤) في الصوم : باب من مات وعليه صوم، ومسلم رقم (١١٤٧) في الصوم: باب قضاء الصيام عن الميت، وأبو داود رقم (٢٤٠٠) في الصوم: باب فيمن مات وعليه صوم.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩/٥) في الوصايا: باب إذا قال: أرضي وبستاني صدقة عن أمي فهو جائز، وباب الإشهاد في الوقف والصدقة، وباب إذا وقف أرضا، و لم يبين الحدود فهو جائز، وأبو داود رقم (٢٨٨٢) في الوصايا، والترمذي رقم (٦٦٩) في الزكاة، والنسائي (٢٥٢/٦، ٢٥٣) والمخرف: النخل، لأنها تخرف ثمارها، أي : تجتني. .

(٣) افتلتت: افتلتت نفس فلان، أي : مات فجأة، كأن نفسه أخذت فلتة.

(٤) رواه البخاري (٢٩١/٥) في الوصايا: باب ما يستحب لمن توفي فجأة أن يتصدقوا عنه، وفي الجنائز، ومسلم رقم (١٠٠٤) في الزكاة، وأبو داود رقم (٢٨٨١) في الوصايا، والنسائي (٢٥٠/٦) في الوصايا، وابن ماجة (١٦٠/٢) والإمام أحمد (٥١/٦).

*وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (أن رجلاً قال للنبي ﷺ: «**إن أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال**: «**نعم**»[١].

*وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: (أن العاص ابن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة، وأن عمرا سأل النبي ﷺ عن ذلك ؟ قال: «**أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد، فصمت وتصدقت عنه، نفعه ذلك**»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (٥/٧٣)، والنسائي (٢/١٢٩)، وابن ماجة (٢/١٦٠) والبيهقي (٦/٢٧٨) والإمام أحمد (٢/٣٧١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/١٨٢) وقال الألباني في (الصحيحة) رقم (٤٨٤) وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات، على الخلاف المعروف في عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده) إلى أن قال حفظه الله تعالى: (والحديث دليل واضح على أن الصدقة والصوم تلحق الوالد، ومثله الوالدة بعد موتهما إذا كانا مسلمين، ويصل إليهما ثوابهما، بدون وصية منهما، ولما كان الوالد من سعي الوالدين، فهو داخل في عموم قوله تعالى :{ **وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى** }، فلا داعي لتخصيص هذا العموم بالحديث وما ورد في معناه في الباب، مما أورده المجد ابن تيمية في (المنتقى) كما فعل البعض.

واعلم أن كل الأحاديث التي ساقها في الباب هي خاصة بالأب أو الأم من الولد، فالاستدلال بها على وصول ثواب القرب إلى جميع الموتى كما ترجم لها المجد ابن تيمية بقوله: (باب وصول ثواب القرب المهداة إلى الموتى) غير صحيح، لأن الدعوى أعم من الدليل، لم يأت دليل يدل دلالة عامة على انتفاع عموم الموتى من عموم أعمال الخير التي تهدي إليهم من الأحياء اللهم إلا في أمور خاصة ذكرها الشوكاني في (نيل الأوطار) (٤/٧٨-٨٠) ثم الكتاب في كتابه (أحكام الجنائز وبدعها) من ذلك الدعاء للموتى، فإنه ينفعهم إذا استجابة الله تبارك وتعالى ، فاحفظ هذا تنج من الإفراط والتفريط في هذه المسألة، وخلاصة ذلك أن للولد أن يتصدق، ويصوم، ويحج، ويعتمر، ويقرأ القرآن عن والديه لأنه من سعيهما، وليس =

ويروي عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ، إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما بعد موتهما؟، فقال: «**نعم، الصلاة عليهما** [1] **والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»[2].

*وعن ابن عمر رضي الله عنهما [أنه كان إذا خرج إلى مكة، كان له حمار يتروح عليه إذا مل ركوب الراحلة، وعمامة يشد بها رأسه، فبينما هو يوماً على ذلك الحمار، إذ مر به أعرابي، فقال: ألست ابن فلان؟ قال: (بلى)، فأعطاه الحمار، فقال: أركب هذا، والعمامة، وقال: اشدد بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: (غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابي حماراً كنت تروح عليه، وعمامة كنت تشد بها رأسك) فقال: (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول «**إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يُولّي، وإن أباه كان ودا**

له ذلك عن غيرهما، إلا ما خصه الدليل مما سبقت الإشارة إليه، والله أعلم) أ.هـ. من سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٤٨٤).

(١) أي الدعاء لهما بالرحمة، وإن لم يكن بلفظ الصلاة، فإن الله تعالى لم يجعل الدنيا عوضا عن بر الوالدين، بل قال: { **وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** }أي: سل الله لهما الفوز في الجنة.

(٢) رواه أبو داود رقم (٥١٤٢) في الأدب: باب بر الوالدين، وابن ماجة، رقم (٣٦٦٤) في الأدب: باب صل من كان أبوك يصل، وابن حبان رقم (٢٠٣٠) وفي سنده علي بن عبيد الساعدي، الراوي عن أبي أسيد، لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجال السند ثقات، والحديث ضعف الألباني إسناده في (تحقيق المشكاة) رقم (٤٩٣٦)، و(ضعيف ابن ماجة) ص (٢٩٦) رقم (٨٠٠).

لعمر»][1].

*وفي رواية البخاري في (الأدب المفرد) وكذلك الترمذي مختصراً: «**إن أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه**».

*ويروي عن عبد الله بن دينار بلفظ: (مر أعرابي في سفر، فكان أبو الأعرابي صديقاً لعمر رضي الله عنه، فقال الأعرابي: (ألست ابن فلان؟، قال: (بلى)، فأمر له ابن عمر بحمار كان يستعقب [2]، ونزع عمامته عن رأسه فأعطاه، فقال بعض من معه: (أما يكفيه درهمان؟)[3]، فقال: قال النبي ﷺ: «**احفظ ود أبيك، لا تقطعه فيطفئ الله نورك**»[4].

*وعن ثابت البناني عن أبي بردة قال: (قدمت المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر، فقال: (أتدري لم أتيتك؟) قال : قلت: (لا) ،

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٥٥٢) في البر والصلة: باب فضل صلة أصدقاء الوالد، وأبو داود رقم (٥١٤٣) في الأدب: باب بر الوالدين، والترمذي رقم (١٩٠٤) في البر والصلة: باب ما جاء في إكرام صديق الوالد

ومعنى (أبر البر) أفضله بالنسبة إلى والده وكذا والدته، وذلك بأن يحفظ الابن أهل ود أبيه وأمه إذا ماتا أو غابا، فيحسن إلى أقاربهما وأحبائهما، فإن هذا من تمام الإحسان إلى الأب، وإنما عد هذا من ابر البر ، لأنه إذا حفظ غيبته فهو بحفظ حضوره أولى وأحرى.

(٢) أي يستريح عليه إذا ضجر من ركوب البعير كما في الرواية السابقة.

(٣) ولفظ مسلم: (قال ابن دينار: «قلنا له: إنهم الأعراب، وهم يرضون باليسير»).

(٤) رواه بهذا اللفظ البخاري في (الأدب المفرد) رقم (٤٠) وعزاه في (الجامع الصغير) إلى الطبراني في (الأوسط) والبيهقي في (شعب الإيمان) وقال الحافظ العراقي: (إسناده جيد) وحسنه الهيثمي، والسيوطي، (فيض القدير) (١/١٩٦) وضعفه الألباني في (ضعيف الجامع) (١/١٠٦) رقم (٢١٠).

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أحب أن يصل أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه من بعده، وإنه كان بين أبي: عمر، وبين أبيك إخاء وودّ، فأحببت أن أصل ذلك**»[1].

***

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٠٣١)، وصححه الألباني على شرط البخاري وعزاه إلى أبي يعلي، (السلسلة الصحيحة) رقم (١٤٣٢) (٣/٤١٧-٤١٨).

عاقبة البر

ومواقف سلفية في بر الوالدين

*وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «**دخلت الجنة، فسمعت قراءة ، فقلت:** «**من هذا؟**» فقيل: حارثة بن النعمان ، فقال رسول الله ﷺ «**كذلكم البر كذلكم البر**» وزاد عبد الرزاق في روايته: «**وكان أبر الناس بأمه**»[1].

وقد رأى ابن عمر رضي الله عنهما رجلاً يطوف بالكعبة حاملاً أمه على رقبته، فقال: يا ابن عمر أترى أني جزيتها؟ قال:(لا، ولا بطلقة واحدة ، ولكنك أحسنت، والله يثيبك على القليل كثيراً).

*وفي رواية البخاري في (الأدب المفرد): (أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري حدث أنه شهد ابن عمر رجلاً يمانياً يطوف بالبيت ، حمل أمه وراء ظهره يقول:

إني لهـــــا بعيرهـــــا المـــــذلل
إن أذعـــرت ركابهـــا لم أذعـــر

(١) رواه الإمام أحمد (٦/٣٦، ١٥١-١٥٢، ١٦٦-١٦٧)، والبغوي في (شرح السنة) (١٣/٧) وعبد الرزاق في (المصنف) (٢٠١١٩) والحاكم (٣/٢٠٨) وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الحافظ ابن حجر في (الإصابة) (١/٦١٨) (إسناده صحيح) أ.هـ.

الله ربي ذو الجلال الأكبر

حملتـــــها أكثـــــر ممـــــا حملــــت

فهل ترى جازيتـــها يـــا ابـــن عمـــر

ثم قال: يا ابن عمر! أتراني جزيتها؟ قال: لا، ولا بزفرة واحدة)[١].

*وعنه أيضا رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر يتماشون، أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رجعت عليهم، فحلبت، بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي ، وإنه قد نأى بي الشجر[٢]، فما أتيت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون**

(١) رواه البخاري في (الأدب المفرد) رقم (١١) وابن المبارك في البر والصلة، والبيهقي في (شعب الإيمان) في الخامس والخمسين، والزفرة: المرة من الزفير، وهو تردد النفس حتى تختلف الأضلاع، وهذا يعرض للمرأة عند الوضع.

(٢) نأي بي الشجر: بعد المرعى والرجوع عنه.

[١] **عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم حتى يرون السماء** » الحديث [٢].

(وكان الفضل بن يحيى أبر الناس بأبيه، بلغ من بره إياه أنهما كانا في السجن ، وكان يحيى لا يتوضأ إلا بماء سخن، فمنعهما السجان من إدخال الحطب في ليلة باردة ، فلما نام يحيى، قام الفضل إلى قمقمة وملأها ماء، ثم أدناه من المصباح، ولم يزل قائماً — وهو في يده — حتى أصبح) [٣].

*وعن أبي عبد الرحمن قال: (كان رجل منا برا بوالديه، فأمراه أو أمره أحدهما أن يتزوج، فتزوج، فوقع بين أمه وبين امرأته شر، ووافقه أهله، فقالت له أمه: طلقها، قال: فاشتد عليه أن يطلق امرأته، واشتد عليه أن يعق أمه ، قال فرحل إلى أبي الدرداء رضي الله عنه فقص عليه قصته، فقال: ما كنت آمرك أن تطلق امرأتك، ولا أن تعق أمك ، ولكن إن شئت حدثتك حديثاً سمعته من النبي ﷺ : «**الوالد** [٤] **أوسط** [٥] **أبواب الجنة، فإن شئت فحافظ على الباب، أو ضيع**» قال : فأنا أشهدكم أنها طالق ، فرجع وقد طلق

(١) يتضاغون: يصوتون باكين.
(٢) رواه البخاري (٣/٨)ط. الشعب، ومسلم (٨٩/٨) في الرقاق، وابن حبان (٤٩٧–موارد) وانظر: مجمع الزوائد) (١٤٠/٨)..
(٣) (بر الوالدين) للطرطوش ص (٧٨).
(٤) الوالد: أي الشخص الوالد، فيشمل الأم والأب.
(٥) أوسط أبواب الجنة: أي خير أبواب الجنة، والمقصود أن طاعته تؤدي إلى دخول الجنة من أوسط أبوابها.

امرأته)[١].

*وعن أبي كثير السحيمي قال: حدثني أبو هريرة رضي الله عنه، قال: (والله، ما خلق الله مؤمناً يسمع بي إلا أحبني) ، قلت: وما علمك بذلك؟ قال: (إن أمي كانت مشركة، وكنت أدعوها إلى الإسلام، وكانت تأبى عليّ ، فدعوتها يوما، فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي فأخبرته، وسألته أن يدعو لها ، فقال: «**اللهم أهد أم أبي هريرة**»، فخرجت أعدو أبشرها فأتيت، فإذا الباب مجاف، وسمعت خضخضة الماء، وسمعت حسي، فقالت: كما أنت، ثم فتحت، وقد لبست درعها وعجلت عن خمارها، فقالت : (أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) ، قال : فرجعت إلى رسول الله ﷺ، أبكي من الفرح كما بكيت من الحزن؛ فأخبرته، وقلت: (ادع الله أن يحببني وأمي إلى عباده المؤمنين)، فقال: «**اللهم حبب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحببهم إليهما**»[٢].

وها هو رضي الله عنه يحكي أنه كان يشتد به الألم من الجوع، فيخرج من بيته إلى المسجد، لا يخرجه إلا الجوع، فيجد نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فيقولون: (يا أبا هريرة ما أخرجك هذه الساعة؟ فيقول: (ما أخرجني إلا الجوع)، فقالوا : ونحن والله

---

(١) الترمذي (١٩٠١) في البر والصلة، وقال: (هذا حديث صحيح) وصححه ابن حبان (٢٠٢٣) وانظر (شرح السنة للبغوي) (١٣/١٠-١١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢/٢٢٠،٢١٩) ومسلم (٢٤٩١) في (فضائل الصحابة) وحسنه الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء) (٢/٥٩٣).

فقالوا: ما أخرجنا إلا الجوع ،فقمنا ، فدخلنا على رسول الله ﷺ فقال: «**ما جاء بكم هذه الساعة؟**» فقلنا: يا رسول الله جاء بنا الجوع، قال: فدعا رسول الله ﷺ بطبق فيه تمر، فأعطى كل رجل منا تمرتين، فقال: «**كلوا هاتين التمرتين، واشربوا عليهما من الماء، فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا**»، قال أبو هريرة : (فأكلت تمرة وخبأت الأخرى، فقال رسول الله ﷺ : «**يا أبا هريرة لم رفعت هذه التمرة؟**»، فقلت: (رفعتها لأمي) ، فقال: «**كلها، فإنا سنعطيك لها تمرتين، فأكلتها، فأعطاني لها تمرتين**»[١].

*وعن أبي مرة: (أن أبا هريرة كان يستخلفه مروان، وكان يكون بذي الحليفة، فكانت أمه في بيت، وهو في آخر، قال : فإذا أراد أن يخرج وقف على بابها، فقال : (السلام عليك – يا أمتاه – ورحمة الله وبركاته) ، فتقول : وعليك يا بني ورحمة الله وبركاته، فيقول: (رحمك الله كما ربيتني صغيراً)، فتقول: رحمك الله كما بررتني كبيراً، ثم إذا أراد أن يدخل صنع مثله)[٢] ، (ولازم أبو هريرة أمه، و لم يحج حتى ماتت لصحبتها)[٣].

وهل أتاك نبأ أويس بن عامر القرني؟ ذاك رجل أنبأ النبي ﷺ بظهوره، وكشف عن سناء منزلته عند الله ورسوله وأخذ البررة

(١) (سير أعلام النبلاء) (٢/٥٩٢-٥٩٣) ، (طبقات ابن سعد) (٤/٣٢٨-٣٢٩).
(٢) رواه البخاري ف (الأدب المفرد) رقم (١٢) وروى بعضه الإمام أحمد في (المسند) (٤/٤٠٩ ، ٤٢٩، ٤٣٠، ٥٢٦) .
(٣) رواه ابن عساكر في (تاريخه) (٤٧/٥١٦-٥١٧) كما عزاه د.محمد عجاج الخطيب في (أبو هريرة راوية الإسلام) ص (١٢٠).

الأخيار من آله وصحابته بالتماس دعوته وابتغاء القربى إلى الله بها، وما كانت آيته إلا بره بأمه، وذلك حديث مسلم : (كان عمر رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس بن عامر؟ قال : نعم، قال : من مراد؟ قال: نعم، قال : كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال : لك والدة؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد من مراد ثم من قرن ، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بار بها، لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل،** فاستغفر لي ، فاستغفر له ، فقال له عمر: أين تريد؟ قال : الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ ، قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي»)[١].

*(وعن أبي عبد الرحمن الحنفي قال: رأى كهمس بن الحسن عقرباً في البيت، فأراد أن يقتلها ، أو يأخذها، فسبقته إلى جحرها، فأدخل يده في الجحر يأخذها، وجعلت تضربه، فقيل له : (ما أردت إلى هذا؟ و لم أدخلت يدك في جحرها تخرجها؟ قال: إني أحمد خفت أن تخرج من الجحر فتجيء إلى أمي فتلدغها »، وكان يمينه الذي يحلف به: إني أحمد، وأحمد)[٢]. أ.هـــ.

*وعن الحسن بن نوح قال: (كان كهمس يعمل في الجص كل يوم بدانقين، فإذا أمسى اشترى به فاكهة فأتى بها إلى

---

(١) رواه مسلم في (صحيحه) انظر: شرح النووي (٢٢٣/٥).
(٢) حلية الأولياء (٢١١/٦).

أمه)[١].أ.هـ.

(وكان كهمس الدعاء يكسح البيت، ويخدم أمه، فأرسل إليه سليمان بن علي الهاشمي بصرة، وقال: «اشتر بها خادما لأمك» لأنه كان مشغولاً بخدمتها، وكان أبر شيء بأمه، وأراده على أن يقبلها فأبى، فألقاها في البيت، ومضى ، فأخذها كهمس، وخرج يتبعه حتى دفعها إليه)[٢]. أ.هـ.

وكان عمرو بن عبيد يأتي كهمساً يسلم عليه، ويجلس عنده هو وأصحابه، فقالت له أمه: (إني أرى هذا وأصحابه، وأكرههم، وما يعجبوني، فلا تجالسهم ، قال : فجاء إليه عمرو وأصحابه، فأشرف عليهم، فقال: إن أمي قد كرهتك وأصحابك، فلا تأتوني)[٣].أ.هـ.

*وعن بعض آل سيرين قال: «ما رأيت محمد بن سيرين يكلم أمه قط إلا وهو يتضرع» وعن ابن عون قال : «دخل رجل على محمد بن سيرين وهو عند أمه، فقال: ما شأن محمد أيشتكي شيئاً؟ قالوا: لا، ولكن هكذا يكون إذا كان عند أمه؟»[٤].

وهذا أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وهو المسمى زين العابدين كان من سادات التابعين،

(١) السابق (٦/٢١٢).
(٢) السابق (٦/٢١٢).
(٣) حلية الأولياء (٦/٢١٢).
(٤) السابق (٢/٢٧٣).

وكان كثير البر بأمه، حتى قيل له: إنك من أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صفحة، فقال: «أخاف أن تسبق يدي إلى ما سبقت إليه عينها، فأكون قد عققتها»[١] أ.هـــ.

وهذا عبد الله بن عون (نادته أمه فأجابها، فعلا صوته صوتها، فاعتق رقبتين)[٢].

(وكان طلق بن حبيب من العبّاد والعلماء، وكان يقبل رأس أمه، وكان لا يمشي فوق ظهر بيت وهي تحته – إجلالاً لها –)[٣].

(وحكي عن ابن القاسم: أنه كان يقرأ عليه (الموطأ) – إذ قام قياما طويلا ثم جلس، فقيل له في ذلك، فقال: (نزلت أمي فسألتني حاجة فقامت، فقمت لقيامها، فلما صعدت جلست)[٤].

(وكان حيوة بن شريح – وهو أحد أئمة المسلمين – يقعد في حلقته يعلم الناس، فتقول له أمه: (قم يا حيوة فألق الشعير للدجاج) فيقوم، ويترك التعليم)[٥].

عن هشام بن حسان قال: كان الهذيل بن حفصة يجمع الحطب في الصيف، فيقشره، ويأخذ القصب، فيفلقه، قالت حفصة: (وكنت أجد قرة، فكان إذا جاء الشتاء جاء بالكانون فيضعه

---

(١) عيون الأخبار (٣/٩٧).
(٢) حلية الأولياء (٣/٣٩).
(٣) بر الوالدين، للطرطوشي ص (٧٨).
(٤) بر الوالدين، للطرطوشي ص (٧٨).
(٥)بر الوالدين، للطرطوشي ص (٧٩).

خلفي، وأنا في مصلاي ثم يقعد فيوقد بذلك الحطب المقشر، وذاك القصب المفلق وقودا لا يؤذي دخانه، ويدفئني، نمكث بذلك ما شاء الله. قالت: وعنده من يكفيه لو أراد ذلك).

قالت: (وربما أردت أنصرف إليه، فأقول: يا بني أرجع إلى أهلك، ثم أذكر ما يريد فأدعه) [١].

قال هشام: (وكانت له لقحة — أي ناقة حلوب غزيرة اللبن — قالت حفصة : كان يبعث إلى بحلبة بالغداة، فأقول: (يا بني إنك لتعلم أني لا أشربه، أنا صائمة)، فيقول : (يا أم الهذيل إن أطيب اللبن ما بات في ضروع الإبل، اسقيه من شئت)[٢].

قال محمد بن سعد: (كانت لمسعر بن كدام أم عابدة، فكان يحمل لها لبداً، ويمشي معها حتى يدخلها المسجد، فيبسط لها اللّبد، فتقوم فتصلي، ويتقدم هو إلى مقدم المسجد، فيصلي، ثم يقعد، ويجتمع إليه من يريد، فيحدثهم، ثم ينصرف إليها، فيحمل لبدها، وينصرف معها)[٣].

(ولما مات ذُرٌّ — وكان من الأولياء- قال أبوه عمر ابن در: (اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من واجب حقي، فاغفر له ما قصر فيه من واجب حقك) فقيل له: (كيف كانت عشرته معك؟) قال: (ما مشي معي قط في ليل إلا كان أمامي، ولا مشي معي في

---

(١) صفة الصفوة (٢٥/٤).
(٢) صفة الصفوة (٢٥/٤-٢٦).
(٣) السابق (١٨٨/٣-١٨٩).

نهار إلا كان ورائي، ولا ارتقى قط سقفا كنت تحته)[١].

وقال عامر بن عبد الله بن الزبير: (مات أبي، فما سألت الله – حولا – إلا العفو عنه)[٢].

وكان عروة بن الزبير يقول في صلاته – وهو ساجد – (اللهم اغفر للزبير بن العوام، وأسماء بنت أبي بكر) يعني والديه رضي الله عنهما [٣].

وكان أبو يوسف الفقيه يقول عقيب صلاته: (اللهم اغفر لأبوي، ولأبي حنيفة)[٤].

---

(١) بر الوالدين، للطرطوشي ص (٧٦).
(٢) عيون الأخبار (٩٨/٣).
(٣)بر الوالدين، للطرطوشي ص (٧٧).
(٤) السابق.

التحذير من عقوق الوالدين والأم

وما أحسن قول بعضهم، إغراء على البر، وتحذيرا عن العقوق ووباله، وإعلاما بما يدحض العاق إلى حضيض سفاله، ويحطه عن كماله:

(أيها المضيع لأوكد الحقوق، المعتاض عن البر بالعقوق، الناسي لما يجب عليه، الغافل عما بين يديه بر الوالدين عليك دين، وأنت تتعاطاه باتباع الشين، تطلب الجنة بزعمك، وهي تحت أقدام أمك، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج، وكابدت عند وضعك ما يذيب المهج وأرضعتك من ثديها لبنا، و أطارت لأجلك وسنا ، وغسلت بيمينها عند الأذى، وآثرتك على نفسها بالغذاء، وصيرت حجرها لك مهداً، وأنالتك إحساناً ورفداً، فإن أصابك مرض أو شكاية، أظهرت من الأسف فوق النهاية، وأطالت الحزن والنحيب، وبذلت ما لها للطبيب، ولو خيرت بين حياتك وموتها، لآثرت حياتك بأعلى صوتها، هذا وكم عاملتها بسوء الخلق مراراً فدعت لك بالتوفيق سراً وجهاراً، فلما احتاجت عند الكبر إليك جعلتها أهون الأشياء عليك، فشبعت وهي جائعة، ورويت وهي ضائعة، وقدمت عليها أهلك وأولادك في الإحسان ، وقابلت أياديها بالنسيان، وصعب لديك أمرها وهو يسير، وطال عليك عمرها وهو قصير، وهجرتها وما لها سواك نصير، هذا، ومولاك قد نهاك عن التأفيف، وعاتبك في حقها بعتاب لطيف، ستعاقب في دنياك بعقوق البنين، وفي أخراك بالبعد من رب العالمين، يناديك

بلسان التوبيخ والتهديد: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[١].

لأمِّك حق لو علمت كبير
كثيرك يا هذا لديه يسير
فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي
لها من جواها أنة وزفير
وفي الوضع لو تدري عليها مشقة
فمن غصص منها الفؤاد يطير
وكم غسلت عنك الأذى بيمينها
وما حجرها إلا لديك سرير
وتفديك مما تشتكيه بنفسها
ومن ثديها شرب لديك نمير[٢]
وكم مرة جاعت وأعطتك قوتها
حنوا وإشفاقاً وأنت صغير
فآهاً لذي عقل ويتبع الهوى
وآهاً لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعائها
فأنت لما تدعو إليه فقير) [٣]

(١) سورة الحج: آية(١٠).
(٢) النمير لغة: الزاكي من الماء.
(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٧١-٧٢).

[فصل]

وفاؤها لأولادها

رغم أن الإسلام لم يحمد من المرأة كراهيتها للزواج بعد زوجها [*] إلا أنه شكره لها، وأجزل عليها مثوبتها، إن اعتزمته، وأقدمت عليه، وفاء لأبنائها، ورعيًّا لهم، وضنا بهم أن يضيعوا عند غير أبيهم:

*عن سهل بن سعد مرفوعاً:«**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا: وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئاً**» [(١)].

*ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من يفتح باب الجنة، إلا أني أرى امرأة تبادرني، فأقول لها: مالك؟ ومن أنت؟ فتقول: (أنا امرأة قعدت على أيتام لي)**»[(٢)].

(*) أنظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٠٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم (١٢٨١) ، (٦٠٨)

(١) رواه مسلم رقم (٢٩٨٣) في الزهد والرقائق: باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، و(الموطأ) (٢/٩٤٨) في الشعر: باب السنة في الشعر.

(٢) ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٨/١٦٢) وقال: رواه أبو يعلي، وفيه عبد السلام بن عجلان، وثقة أبو حاتم، وابن حبان، وقال: يخطئ ويخالف، وبقية رجاله ثقات) أهـ، وقال أبو الفضل عبد الله بن الصديق الغماري: رواه أبو يعلي في مسنده بإسناد حسنن ومعنى (قعدت على أيتام) أي مات زوجها، وترك لها أيتامها، فلم تتزوج، وقعدت على أيتامها تربيهم ، أ.هـ من (تمام المنة ببيان الخصال الموجبة للجنة) ص (١٧٨)- الحديث العشرون والمائة.

*ويروي عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا، وامرأة سفعاء الخدين كهاتين يوم القيامة**– وأومأ يزيد بن زريع الراوي بالوسطى والسبابة– **امرأة آمت من زوجها، ذات منصب وجمال، حبست نفسها على يتاماها، حتى بانوا، أو ماتوا**»[1].

*وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلت على امرأة، ومعها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئا، غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي ﷺ، فأخبرته فقال النبي ﷺ: «**من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له سترا من النار**»)[2].

*وفي رواية لمسلم: (جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فشقت التمرة التي كانت تريد أن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦/٢٩) وأبو داود رقم (٥١٤٩) في الأدب: باب فضل من عال يتيما، وفي سنده النهاس بن قهم ابن الخطاب البصري القاضي، قال الحافظ في (التقريب): ضعيف، والسفعة: نوع من السواد ليس بكثير، وأراد أنها بذلت نفسها ليتاماها، وتركت الزينة والترفه حتى شحب لونها، وأسود، وآمت – بالمد – أقامت بلا زوج، ومعنى بانوا: انفصلوا واستغنوا، وانظر (يون المعبود) (١٤/٥٨).

(٢) رواه البخاري (٤/٢٦) في الزكاة: باب اتقوا النار ولو بشق تمرة، وفي الأدب: باب رحمة الولد وتقبيله، ومسلم رقم (٢٦٢٩) في البر والصلة: باب فضل الإحسان إلى البنات، والترمذي رقم (١٩١٦) في البر والصلة : باب ما جاء في النفقة على البنات.

تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صنعت للنبي ﷺ فقال: «**إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة، وأعتقها بها من النار**».

فهذه أم هانئ فاختة بنت أبي طالب رضي الله عنها أخت أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه وبنت عم رسول الله ﷺ وراوية حديث الإسراء، فرق الإسلام بينها وبين زوجها (هبيرة)[(١)]، وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين، فخطبها رسول الله ﷺ فقالت أم هانئ: يا رسول الله، لأنت أحب إلى من سمعي ومن بصري وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت على زوجي – تعني رسول الله ﷺ- أن أضيع بعض شأني وولدي، وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي، وهنا امتدحها النبي ﷺ وشكر لها ذلك فقال: «**إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل – أي زوج – في ذات يده**»[(٢)].

وانصرفت أم هانئ إلى الاهتمام بأمور أبنائها وتربيتهم تربية صالحة، فنشأوا عالمين عاملين، وروي بعضهم عنها ما حدثت به عن رسول الله ﷺ من الأحاديث أمثال ابن ابنها جعدة المخزومي، وابن ابنها يحيى بن جعفر، وابن ابنها هارون، وعاشت حتى خلافة

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٣٢١-٣١٣).

(٢) رواه البخاري (٩/١٠٧) في النكاح: باب إلى من ينكح؟ وأي النساء خير، وفي النفقات: باب حفظ المرأة زوجها في ذات يده، والنفقة، ومسلم (٢٥٢٧) في فضائل الصحابة : باب خيار الناس، والإمام أحمد (٢/٢٦٩، ٢٧٥ ، ٣٩٣ ، ٤٤٩، ٥٠٢) وفي رواية المستدرك (٤/٥٣) لكني امرأة مُصْبية، فأكره أن يؤذوك.

أخيها على رضي الله عنه.

وكان ذلك بعض عذر أم سلمة حين خطبها رسول الله ﷺ فأرسلت تقول له: "إني مُصْبية"[١]فأرسل إليها: «**أما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله**» فقالت: عند ذلك: مرحبا برسول الله ﷺ [٢].

وتلك أم سليم الغُمَيْصاء رضي الله عنها إحدى السابقات إلى الإسلام، أسلمت ورسول الله ﷺ بمكة، وبايعته حين مقدمه إلى المدينة، وكان إسلامها مراغمة لزوجها مالك بن النضر، وكان ولدها أنس بن مالك يومئذ طفلاً رضيعاً، فكانت تقول له: (قل لا إله إلا الله، قل أشهد أن محمداً رسول الله)فجعل ينطق بذلك أول ما ينطق، فكان مما يثير الغضب في نفس مالك، فيقول لها: (لا تفسدي علي ولدي) فتقول: (إني لا أفسده)! ثم أيأسه أمرها فخرج عنها إلى الشام، وهنالك لقي عدوا له، فقتله، فلما بلغها قتله – وكانت شابة حدثة، وكثر خطابها – قالت: (لا جرم، لا أفطم أنسا حتى يدع الثدي، ولا أتزوج حتى يجلس في المجالس ويأمرني) فوفت بعهدها وبرت، وكان أنس رضي الله عنه يعرف لها تلك

---

(١) أي ذات صبية ، والصبي من لم يفطم بعد، وقد كان لها ثلاثة أولاد سلمة أكبرهم وعمر وزينب أصغرهم، وربوا في حجر النبي ﷺ .

(٢) انظر روايات الحديث في (الطبقات) لابن سعد (٩٠/٨) والمسند للإمام أحمد (٣١٣/٦، ٣١٤، ٣١٧) وسنن النسائي (٨١/٦، ٨٢) في النكاح: باب إنكاح الابن لأمه، وقال الحافظ في الإصابة (٢٢٣/١٣) إسناده صحيح أ.هـ، وصححه ابن حبان (١٢٨٢) والحاكم (١٧/٤) ووافقه الذهبي.

المنة، ويقول: (جزى الله أمي عني خيراً، لقد أحسنت ولايتي).

حتى إذا شبّ أنس تقدم لخطبتها أبو طلحة زيد – وكان مشركا – فأبت، ثم قالت له يوما فيما تقول: (أرأيت حجراً تعبده لا يضرك ولا ينفعك، أو خشبة تأتي بها النجّار، فينجّرها لك: هل يضرك ؟ هل ينفعك؟) وأكثرت من أشباه ذلك الكلام، فوقع في قلبه الذي قالت: فأتاها فقال: (لقد وقع في قلبي الذي قلت) وآمن بين يديها، قالت: (فإني أتزوجك، ولا أريد منك صداقاً غير الإسلام)[1]، قال ثابت: (فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهراً من أم سليم الإسلام)[2] أ.هـ.

وقالت امرأة من نساء اليمامة تدعي (أم أُثال) – وكانت كأحسن النساء وجها – فلما مات زوجها، تدافع الخطاب على بابها، فردت كل خاطب، وفاء لابنها أثال:

لعمر أُثال لا أفدي بعيشه
وإن كان في بعض المعاش جفاء
إذا استجمعت أم الفتى غض طرفه
وشاعَرَه دون الدّثار بلاء[3]

ذلك بعض حديث المرأة المسلمة في الوفاء لخير ما خلقت له، ووكلت به.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٤٢٦/٨) والنسائي (١١٤/٦) في النكاح: باب التزويج على الإسلام، ورجاله ثقات خلا خالد بن مخلد، وهو القطواني، قال الحافظ في التقريب (صدوق له أفراد) أ.هـ.

(٢) رواه النسائي (١١٤/٦).

(٣) بلاغات النساء ص (١٣٢-١٣٣).

الأمومة والتضحية:

تنتقل المرأة بعد ذلك إلى طور آخر تبلغه، فتبلغ به غاية ما أعدت له من كمال النفس، وشرف العاطفة، ذلك طور التضحية، فهناك تنزل المرأة عن حقها من الوجود لمن فصل عن لحمها ودمها، تسهر لينام، وتظمأ ليروى، وتحتمل الألم الـمُمِضّ – راضية مغتبطة – لتذيقه طعم الدّعة، وتُنْشِيه نسيم النعيم.

تلك هي التضحية بالنفس بلغت بها الأمومة غايتها:

والجود بالنفس أقصى غاية الجودِ

وهاك هذه القصة الشعرية الرمزية، والتي يظهر فيها الشاعر حقيقة قلب الأم، وما يكنه من مشاعر وعواطف، ورأفة وحنان:

أغرى امرؤ يوماً غُلاماً جاهلاً
بنقوده كيما ينالَ به الوطرْ
قال ائتني بفؤاد أمك يا فتى
ولك الجواهر والدراهم والدرر
فمضى وأغرز خنجراً في صدرها
والقلب أخرجه وعاد على الأثر
لكنه من فرط سرعته هوى
فتدحرج القلب المقطع إذ عثر
ناداه قلب الأم وهو مُعَفّر

ولدي حبيبي هل أصابك من ضـــرر؟

فكأن هـــذا الصـــوت رغـــم حُنُـــوِّهِ

غضبُ السماء على الغلام قد انهمــر

فــــدرى فظيـــعَ جنايـــةً لم يجنـــها

ولـــد ســـواه منـــذ تـــاريخ البشـــر

فارتـــدّ نحـــو القلـــب يغســـله بمـــا

فاضت به عينـــاه مـــن ســـيل العـــبر

ويقول يـــا قلـــب انـــتقم مـــني ولا

تغفـــر فـــإن جـــريمتي لا تُغتفـــر

واســـتل خنجـــره لـــيطعن قلبـــه

طعنـــا فيبقـــى عـــبرة لمـــن اعتـــبر

ناداه قلـــب الأم كُـــف يـــدا، و لا

تطعن فؤادي مـــرتين علـــى الأثـــر[1]

***

(١)نقلاً من خطر التبرج والاختلاط (عبد الباقي رمضون) ص (١٣٤-١٣٥).

[فصل]

من مواقف الأم المسلمة

[في قرن وبعض قرن، وثب المسلمون وثبة ملئوا بها الأرض قوة وبأساً وحكمة وعلماً، فراضوا الأمم، وهاضوا الممالك، وركزوا ألويتهم في قلب آسيا وهامات أفريقية، وأطراف أوروبا، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعملهم وأدبهم تدين لها القلوب وتنقلب بها الألسنة، بعد أن كانوا فرائق بدداً لا نظام، ولا قوام ولا علم ولا شريعة.

ففي أي المدارس درجوا، ومن أي المعاهد خرجوا؟

لقد قطع المسلمون تلك المرحلة التي سهم لها الدهر، ووجم لروعتها التاريخ، و لم يقيموا معهداً أو ينشئوا جامعة.. أستغفر الله! بل لقد كانت خِصاصهم وخيامهم ودورهم وقصورهم معاهد ومدارس، وما شئت من مغارس حكمة، ومغاوص آداب، ولي أمرها أمهات صدق، أقامهن الله على نشئه، واستخلفهن على صنائعه، وأتمنهن على دعاة حقه، ورعاة خلقه، فكن أقوم خلفائه بواجبه، وأثبتهن على عهده، وأنهضهن بالفادح الشديد من أمره.

لقد كان الله سبحانه وتعالى أبر بهؤلاء القوم من أن يخرجهم مخرجا سيئاً، أو ينبتهم منبتاً فاسداً، أو يضمهم إلى صدور واهية وقلوب سقيمة، ثم يسومهم أشرف مطالب الحياة، ويوردهم أسمى مقاصدها.. لأن الأم من الأمة بمثابة القلب من الجسد، فهي غذاء

أرواحها، ومران أعوادها، ومفيض مداركها، ومبعث عواطفها، فإن وهنت كان كل أولئك ضعيفاً.

لقد كانت نهضة المسلمين غريبة فريدة؛ لأن المرأة كذلك كانت غريبة فريدة.. وإذا كانت المرأة الحديثة قد أنصتت لـــ (لنكولن) زعيم الجمهورية الأمريكية، وهو يقول لمهنئيه بمنصب من مناصب الدنيا: (لا تهنئوني، وهنئوا أمي فهي التي رفعتني إلى مقامي هذا)، فإن المرأة المسلمة كانت تستمع لأشباه هذا الكلام من أشباه (لنكولن) فلا ينثني جيدها، ولا يهتز عطفها لطول ما سمعته وألفته][1]، ودونك هذه المواقف للأم المسلمة لترى مصداق هذا الحديث:

*** بطل قريش يرتجف أمام أمه:**

(لما كانت موقعة أحد أغرت هند بنت عتبة بحمزة بن عبد المطلب من خالسه فصرعة – وكان قد قتل آلها يوم بدر – ثم نفذت إليه فبقرت بطنه، ونزعت كبده، وجدعت أنفه، وحلمت أذنيه، وجاء بعدها أبو سفيان، فأخذ يطعنه بالرمح في فمه حتى مزقه.. انقضت الموقعة وجثمان حمزة تكاد تحيل معالمه لفرط ما مثل به، فلما وقف به رسول الله ﷺ اشتد حزنه لما أصاب عمه البطل الكريم، ووقف بنجوة منه، ثم أبصر فوجد عمته صفية بنت عبد المطلب مقبلة لتنظر ما فعل القوم بأخيها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام:

---

(١) انظر: المرأة المسلمة، لعبد الله عفيفي (٢/١٢٥-١٢٦).

(دونك أمك فامنعها، وأكبر همه ألا يجد بها الجزع لما ترى، فلما وقف ابنها يعترضها قالت:

(دونك، لا أرض لك، لا أم لك!)

وهنالك رجفت أحناء بطل قريش، ولزلزلت قدماه، واعتقل لسانه، وكر راجعاً إلى رسول الله ﷺ فحدثه حديث أمه، فقال: (خل سبيلها).

كذلك انفرجت صفوف الناس لعمة رسول الله ﷺ فسارت حتى أتت أخاها فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، وقالت لابنها: قل لرسول الله ﷺ ما أرضانا بما كان في سبيل الله! لأحتسبن، ولأصبرن إن شاء الله)[(١)]

(فانظر إلى موقف البطل المسلم حيال أمه، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يقف دونها فيعترضها، ولو سامه النبي ﷺ أن يعترض الجيش اللهام لوقف في سبيله غير هائب ولا مدفوع .. وما له لا يعنو وجهه، ولا ترتجف أضالعه لعظمة الأمومة وعظمة الخلق؟!

*لبث عبد الله بن الزبير [(٢)] على إمرة المؤمنين، ودانت له العراق والحجاز واليمن ثماني سنين، ثم أخذ عبد الملك بن مروان يقارعه فانتقص منه العراق، ورماه بعد ذلك بالحجاج بن يوسف، فأخذ

(١) السابق (١٢٩/٢-١٣٠) وانظر (الروض الأنف) للسهيلي(١٧٢/٣) .

(٢) ابن الزبير رضي الله عنهما أبوه حواري رسول الله ، وأمه بنت الصديق ، وخالته عائشة حبيبة حبيب الله، وجدته صفية عمة رسول الله ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد رضي الله عنهن، انظر (البداية والنهاية) (٣٣٤/٨).

يطوي بلاده عنه حتى انتهى إلى مكة فطوقها، ونصب المجانيق على الكعبة، وأهوى بالحجارة عليها، وفي الكعبة يومئذ أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

وكان عبد الله يقاتل جند الحجاج مسنداً ظهره إلى الكعبة، فيعيث فيهم، ويروع أبطالهم، وليس حوله إلا القوم الأقلون عدداً، والحجاج بين ذلك كله يرسل إليه يمنيه الخير، ويعده بالإمارة في ظل بني أمية لو أغمد سفيه، وبسط للبيعة يده.

دخل عبد الله على أثر ذلك على أمه، فقال: (يا أمه! خذلني الناس حتى أهلي وولدي، ولم يبق معي إلا اليسير، ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟) فقالت: الله الله يا بني! إن كنت تعلم أنك على حق تدعو إليه، فامض عليه، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيلعبوا بك، وإن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي، فليس هذا فعل الأحرار، ولا من فيه خير، كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير، والله لضربة بالسيف في عِز أحب إلي من ضربة بالسوط في ذل، فقال: (يا أماه، أخاف إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني) قالت: يا بني إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح، فامض على بصيرتك واستعن بالله) فقبل رأسها، وقال لها: (هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيا إلى الله، والله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله عز وجل أن تهتك محارمه، ولكني أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدني قوة

وبصيرة مع قوتي وبصيرتي، والله ما تعمدت إتيان منكر، ولا عملا بفاحشة، ولم أجر في حكم، ولم أغدر في أمان، ولم يبلغني عن عمالي حيف، فرضيت به، بل أنكرت ذلك، ولم يكن شيء عندي آثر من رضاء ربي، اللهم إني لا أقول ذلك تزكية لنفسي، ولكن أقوله تعزية لأمي لتسلو عني) فقالت: والله إني لأرجو أن يكون عزائي فيك جميلاً، إن تقدمتني احتسبتك، وإن ظفرت سررت بظفرك، اخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك) ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل، وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة، وبره بأمه، اللهم إني قد سلمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بقضائك، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين، قال: (يا أمه، لا تدعي الدعاء لي قبل قتلي ولا بعده) فقالت: (لن أدعه، فمن قتل علي باطل، فقد قتلت علي حق) فتناول يدها ليقبلها فقالت: (هذا وداع، فلا تبعد) فقال لها: (جئت مودعاً، لأني أرى هذا آخر أيامي في الدنيا) قالت: (امض على بصيرتك، وأدن مني حتى أودعك) فدنا منها فعانقته، وقبلته، فوقعت يدها على الدرع، فقالت: (ما هذا صنيع من يريد ما تريد) فقال: (ما لبستها إلا لأشد متنك) قالت: (إنها لا تشد متني) فنزعها ثم درج لمته، وشد قميصه وجبته، وخرج وهو يقول:

أبي لابـــن ســـلمى أن يعـــبر خالـــداً
ملاقـــي المنايـــا أي صـــرف تيممـــاً
فلســـــت بمبتـــاع الحيـــاة بســـبة
ولا مرتق من خشـــية المـــوت ســـلما

وقال لأصحابه، (احملوا على بركة الله، وليشغل كل منكم رجلاً، ولا يلهينكم السؤال عني، فإني على الرعيل الأول) ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون وهنالك رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه، فأخذته منه رعدة، فدخل شعباً من شعاب مكة يستدمي، فبصرت به مولاة له، فقالت:

(وا أمير المؤمنينا!) فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه، وصلبه الحجاج، فأقام جثمانه على الجذع عاماً كاملاً، حتى إذا أمر عبد الملك بإنزاله، أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه، وذهب البلى بأوصاله، ثم كفنته، وصلت عليه، ودفنته)[١].

وروى ابن حزم بسنده عن صفية بنت شيبة قالت: (دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يصلب، فقيل له: (هذه أسماء) فمال إليها وعزاها، وقال: (إن هذه الجثث ليست بشيء، وإن الأرواح عند الله عز وجل) فقالت له أسماء: (وما يمنعني وقد أهدى رأس يحيى إلى بغي من بغايا بني إسرائيل)[٢].

*[وعن جويرية بن أسماء عن عمه أن إخوة ثلاثة شهدوا يوم تستر، فاستشهدوا، فخرجت أمهم يوماً إلى السوق لبعض شأنها، فتلقاها رجل حضر (تستر) فعرفته، فسألته عن أمور بنيها، فقال: (استشهدوا)، فقالت: (مقبلين أو مدبرين؟) قال: (مقبلين) قالت: (الحمد لله نالوا الفوز، وحاطوا الذمار بنفسي هم وأبي

---

(١) السابق (٢/١٣٠-١٣٢) وانظر البداية والنهاية (٨/٣٢٩-٣٤٥).

(٢) المحلي (٢/٢٢) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٩٤-٢٩٥).

وأمي).أ.هـ. من جمهرة الخطباء][(١)]أ.هـ.

كل ذلك وأشباهه ما جعل للأم المقام الأوفى، والمنزلة الأسمى، وهذا هو سر عظمة القوم، وسبيل نهضتهم، ومنبعث قوتهم، وإليه مرجع استبسالهم واستماتتهم:

خلفت جيلاً مــن الأبطــال ســيرتهم
تضوع بين الــورى روحــاً وريحانــاً
كانــت فتوحهمــو بــرا ومرحمــة
كانت سياســتهم عــدلاً وإحســاناً
لم يعرفــوا الــدين أوراداً ومســبحة
بل أشبعوا الدين محرابــاً وميــداناً [(٢)]

***

(١) المنحة المحمدية في بيان العقائد السلفية ، للشيخ محمد ابن أحمد بن عبد السلام خضر ص(٢١١).

(٢)انظر : تربية الأولاد في الإسلام (١/٢٩٨).

[فصل]

الأم المسلمة وراء هؤلاء العظماء

إذا قلبت صفحات تاريخنا الإسلامي، فلا تكاد تقف على عظيم ممن ذلت لهم نواصي الأمم، ودانت لهم الممالك، وطبق ذكرهم الخافقين، إلا وهو ينزع بعرقه وخلقه إلى أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها؟ مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفاذ إلى قلوبهم، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم، وفي مسارب دمائهم:

فالزبير بن العوام: فارس رسول الله ﷺ الذي بلغ من بسالته وبطولته، أن عدل به الفاروق رضي الله عنه، ألفا من الرجال، حين أمد به جيش المسلمين في مصر، وكتب إلى قائدهم عمرو بن العاص رضي الله عنه يقول:

(أما بعد: فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن خالد) وقد صدقت فراسة الفاروق رضي الله عنه وسجل التاريخ في صفحاته أن الزبير لا يعدل ألفاً فحسب، بل يعدل أمة بأسرها، فقد تسلل إلى الحصن الذي كان يعترض طريق المسلمين، وصعد فوق أسواره، وألقى بنفسه بين جنود العدو، وهو يصيح صيحة الإيمان: (الله أكبر).. ثم اندفع إلى باب

الحصن، ففتحه على مصراعيه، واندفع المسلمون، فاقتحموا الحصن، وقضوا على العدو قبل أن يفيق من ذهوله.

(هذا البطل العظيم إنما قامت بأمره أمه صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ، وأخت حمزة أسد الله، فقد شب في كنفها، ونشأ على طبعها، وتخلق بسجاياها.

*والكملة العظماء عبد الله، والمنذر، وعروة أبناء الزبير كانوا ثمرات أمهم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، وما منهم إلا له الأثر الخالد، والمقام المحمود.

*وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه تنقل في تربيته بين صدرين من أملأ صدور العالمين حكمة وأحفلها بجلال الخلال، فكان مغداه على أمه فاطمة بنت أسد، ومراحه على خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ﷺ، وعبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم، تركه أبوه صغيراً، فتعاهدته أمه أسماء بنت عميس، ولها من الفضل والنبل ما لها.

*وأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أريب العرب وألمعيها، ورث عن هند بنت عتبة ما لم يرث عن أبي سفيان، وهي القائلة — وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها: (إن عاش معاوية ساد قومه) فقالت :(ثكلته إن لم يسد إلا قومه) ولما نعى إليها ولدها يزيد بن أبي سفيان قال لها بعض المعزين: (إنا لنرجو أن يكون في معاوية خلف منه)، فقالت: (أو مثل معاوية يكون خلفا من أحد؟ والله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به

فيها لخرج من أيها شاء).

وكان معاوية رضي الله عنه إذا نوزع الفخر بالمقدرة وجوذب بالمباهاة بالرأي انتسب إلى أمه، فصدع أسماع خصمه بقوله: (أنا ابن هند)[١].

*(وعبد الله بن زيد المازني الذي حكى وضوء رسول الله ﷺ والذي قتل مسيلمة الكذاب بسيفه [٢]، وقتل هو يوم الحرة..

وأخوه حبيب بن زيد بن عاصم المازني الذي أخذه مسيلمة فقطعه، قطعة قطعة.

كلاهما كان ثمرة أم فاضلة مجاهدة هي أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها، كان أخوها عبد الله بن كعب المازني من البدريين، وكان أخوها عبد الرحمن من البكائين، شهدت ليلة العقبة، وشهدت أحدا، والحديبية، ويوم حنين، ويوم اليمامة، وجاهدت، وفعلت الأفاعيل)[٣].

*وعبد الملك بن مروان أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية، وكان لها من مضاء العزم، وذكاء القلب، ونفاذ الرأي — ما لم يكن مروان في شيء منه، وهي التي يعنيها ابن قيس

(١) المرأة العربية (٢/١٣٣-١٣٤(بتصرف).
(٢) هكذا ذكره الحافظ الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء (٢/٢٨١-٢٨٢) وهو يخالف ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله في قصة مقتل مسيلمة الكذاب في البداية والنهاية (٦/٣٤١) ، (٦/٢٦٨) من أن الكذاب قتله وحشي بن حرب، وأبو دجانة سماك بن حرسة الأنصاري.
(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/٢٧٨-٢٨٢).

الرقيات في قوله لعبد الملك:

أنـــت ابـــن عائشـــة الـــتي
فضـــلت أروم [١] نســـائها

لم تلتفـــــت للـــــداها [٢]
ومشـــت علـــى غلوائهـــا[٣]

ولـــدت أغـــر مباركـــاً
كالشمس وســط سمائهــا[٤]

*وأبو حفص عمر بن عبد العزيز أورع الملوك وأعدلهم وأجلهم، أمة أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، أكمل أهل دهرها كمالاً، وأكرمهن خلالاً، وأمها تلك التي اتخذها عمر لابنه عاصم، وليس لها ما تعتز به من نشب ونسب، إلا ما جرى على لساها من قول الصدق في نصيحتها لأمها [٥] وهي التي نزعت به إلى خلائق جده الفاروق رضي الله عنه.

*(وأمير المؤمنين عبد الرحمن بن الناصر الذي ولي الأندلس

---

(١) الأروم: جمع الأورمة: الأصل.
(٢) لدات: جمع لدة، واللدة: الترب، من ولد معك.
(٣) الغلواء، الغلو، وأول الشباب وسرعته.
(٤) العقد الفريد (٢/٢١٦) ط. بولاق.
(٥) حكى الميداني أن عمر رضي الله عنه مر بسوق الليل – وهي من أسواق المدينة – فرأى امرأة معها لبن تبيعه ، ومعها بنت لها شابة ، وقد همت العجوز أن تمذق لبنها – أي تخلطه بالماء – فجعلت الشابة تقول: يا أمه، لا تمذقيه، ولا تغشيه ، فوقف عليها عمر فقال: من هذه منك؟ قالت : ابنتي، فأمر عاصما فتزوجها، وهي جدة عمر بن عبد العزيز لأمه .

وهي ولاية تميد بالفتن، وتشرق بالدماء، فما لبثت أن قرت له وسكنت لخشيته، ثم خرج في طليعة جنده، فافتتح سبعين حصنا في غزوة واحدة، ثم امعن بعد ذلك في قلب فرنسا، وتغلغل في أحشاء سويسرا، وضم أطراف إيطاليا، حتى ريض كل أولئك له، ورجف لبأسه، وبعد أن كانت قرطبة دار إمارة يذكر الخليفة العباسي على منابرها، وتمضي باسمه أحكامها، أصبحت مقر خلافة يحتكم إليها عواهل أوروبا وملوكها، ويختلف إلى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها.

أتدري ما سر هذه العظمة وما مهبط وحيها؟ إنها المرأة وحدها! فقد نشأ عبد الرحمن يتيما قتل عمه أباه، فتفردت أمه بتربيته وإيداع سر الكمال وروح السمو في ذات نفسه، فكان من أمره ما علمت)[١].

*وسفيان الثوري، وما أدراك ما سفيان الثوري [٢]؟!

إنه فقيه العرب ومحدثهم، وأحد أصحاب المذاهب الستة المتبوعة، إنه أمير المؤمنين في الحديث الذي قال فيه زائدة: (الثوري سيد المسلمين)، وقال الأوزاعي: (لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان)، وما كان ذلك الإمام الجليل، والعلم الشامخ، إلا ثمرة أم صالحة، حفظ التاريخ لنا مآثرها وفضائلها ومكانتها، وإن كان ضن علينا باسمها.

---

(١) المرأة العربية (١٣٦/٢).

(٢) انظر : الإمام سفيان الثوري، للدكتور محمد أبو الفتح البيانوني ص (٣٦-٣٧)..

روى الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله بسنده عن وكيع قال: (قالت أم سفيان لسفيان: (يا بني، اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي)[1] فكانت – رحمها الله – تعمل، وتقدم له، ليتفرغ للعلم، وكانت تتخوله بالموعظة والنصيحة، قالت له ذات مرة – فيما يرويه الإمام أحمد أيضاً – (يا بني، إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر: هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك، ولا تنفعك)[2].

فهل من غرابة بعد هذا أن نرى سفيان يتبوأ منصب الإمام في الدين، كيف وهو قد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الرحيمة، وتغذى بلبان تلك الأم الناصحة التقية؟!

*والإمام الثقة الثبت إمام أهل الشام وفقيههم، أبو عمر الأوزاعي يقول فيه أبو إسحاق الفزاري: (ما رأيت مثل رجلين: الأوزاعي، والثوري، فأما الأوزاعي فكان رجل عامة، والثوري كان رجل خاصة، ولو خيرت لهذه الأمة، لأخترت لها الأوزاعي، لأنه كان أكثر توسعاً، وكان والله إماماً، إذ لا نصيب اليوم إماماً، ولو أن الأمة أصابتها شدة، والأوزاعي فيهم، لرأيت لهم أن يفزعوا إليه)[3]، وقال الخريبي: (كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه)

وقال بقية بن الوليد: (إنا لنمتحن الناس بالأوازعي، فمن ذكره

---

(١) صفة الصفوة (٣/١٨٩).

(٢)صفة الصفوة (٣/١٨٩).

(٣) يعني: كي يفيدوا من علمه وقضائه وورعه.

بخير: عرفنا أنه صاحب سنة)، وقال العجلي: (شامي ثقة من خيار المسلمين).

وقال الشافعي: (ما رأيت أحداً أشبه فقهه بحديثه من الأوزاعي)[١].

قال النووي رحمه الله (وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي وجلالته وعلو مرتبته وكمال فضله، وأقاويل السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة مصرحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسنة وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له، واعترافهم بمرتبته)[٢].

وعن سفيان الثوري (أنه لما بلغه مقدم الأوزاعي، خرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار، ووضعه على رقبته، وكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ)[٣].

(وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في الطبقات أن الأوزاعي سئل عن الفقه – يعني استُفتي – وله ثلاث عشرة سنة) [٤].

ذلك الحبر كان أيضا ثمرة أم عظيمة:

قال الذهبي رحمه الله: (قال العباس بن الوليد: فما رأيت أبي يتعجب من شيء في الدنيا تعجبه من الأوزاعي، فكان يقول:

---

(١) انظر : تهذيب التهذيب (٦/٢٣٨-٢٤٢).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات (١/٢٢٩).

(٣) السابق (١/٣٠٠).

(٤)السابق (١/٣٠٠).

(سبحانك، تفعل ما تشاء، كان الأوزاعي يتيما فقيراً في حجر أمه، تنقله من بلد إلى بلد، وقد جرى حكمك فيه أن بلغته حيث رأيته، يا بني، عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدب الأوزاعي في نفسه، ما سمعتُ منه كلمة قط فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكاً قط حتى يقهقه، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد، أقول في نفسي: أترى في المجلس قلب لم يبك؟)[1].

قال أبو مسهر: (وكان الأوزاعي رحمه الله تعالى يحيي الليل صلاة وقرآنا وبكاء، وأخبرني بعض إخواني من أهل بيروت، أن أمه كانت تدخل منزل الأوزاعي، وتتفقد موضع مصلاه، فتجده رطبا من دموعه في الليل)[2].أ.هـ.

*[وهذه أم (ربيعة الرأي) شيخ الإمام مالك، أنفقت على تعليم ولدها ثلاثين ألف دينار خلفها زوجها عندها، وخرج إلى الغزو، ولم يعد لها إلا بعد أن استكمل ولده الرجولة والمشيخة، وكانت أمه قد اشترتهما له بمال الرجل، فأحمد الرجل صنيعها، وأربح تجارتها في قصة طويلة ساقها ابن خلكان قال: (وكان فروخ أبو ربيعة خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أمية، وربيعة حمل في بطن أمه، وخلف عند زوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار، فقدم المدين بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرساً، وفي يده رمح، فنزل ودفع الباب برمحه، فخرج ربيعة، وقال: (يا عدو الله، أتهجم على

(١) سيرة أعلام النبلاء (١١٠/٧).
(٢) سيرة أعلام النبلاء (١٢٠/٧).

منزلي؟) فقال فروخ: (يا عدو الله، أنت دخلت على حرمي؟ فتواثبا حتى اجتمع الجيران، وبلغ مالك بن أنس، فأتوا يعينون ما يحدث وكثر الضجيج، وكل منهما يقول: (لا فارقتك) فلما بصروا بمالك سكتوا، فقال مالك: (أيها الشيخ، لك سعة في غير هذه الدار) فقال الشيخ: (هي داري وأنا فروخ) فسمعت امرأته كلامه، فخرجت، وقالت: (هذا زوجي، وهذا ابني الذي خلفه، وأنا حامل به)، فاعتنقا جميعاً وبكيا، ودخل فروخ المنزل، وقال: (هذا ابني؟) فقالت: نعم، قال: (أخرجي المال الذي عندك)، قالت — تعرض- قد دفنته، وأنا أخرجه، ثم خرج ربيعة إلى المسجد، وجلس في حلقته، فأتاه مالك والحسن وأشراف أهل المدينة، وأحدق الناس به، فقالت أمه لزوجها فروخ: (اخرج فصلِّ في مسجد رسول الله ﷺ، فخرج، فنظر إلى حلقة وافرة، فأتاها، فوقف عليها، فنكس ربيعة رأسه يوهمه أنه لم يره، وعليه قلنسوة طويلة، فشك أبوه فيه، فقال: (من هذا الرجل)؟ فقيل: هذا ربيعة بن أبي عبد الرحمن، فقال: (لقد رفع الله ابني)، ورجع إلى منزله، وقال لوالدته: لقد رأيت ولدك على حالة ما رأيت أحداً من أهل العلم والفقه عليها، فقالت أمه: فأيما أحب إليك: ثلاثون ألف دينار أو هذا الذي هو فيه؟ فقال: لا والله، بل هذا، فقالت: انفقت المال كله عليه، قال: فوالله، ما ضيعته)] أ.هـ [1].

ثم إذا نشرنا صفحة العهد العباسي، بل صفحة العهد الإسلامي

(١) من أخلاق العلماء ، للشيخ محمد بن سليمان ص (١٥٣-١٥٤).

لا نجد في تضاعيفها امرأً دنت له قطوف العلم والحكمة، ودانت له نواصي البلاغة والفصاحة كمحمد ابن إدريس الشافعي فهو الشهاب الثاقب الذي انتظم حواشي الأرض، فملأ أقطارها علماً وفقهاً، ذلك أيضا ثمرة الأم العظيمة.

فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع، فتولته أمه بعنايتها، وأشرقت عليه بحكمتها، وكانت امرأة من فضليات عقائل الأزد [1]، وهي التي تنقلت به (غزة) مهبطة إلى (مكة) مستقر أخواله، فربته بينهم هنالك.

(وكانت أم الشافعي رحمها الله – باتفاق النقلة – من العابدات القانتات، ومن أزكى الخلق فطرة [2]، ومن طريف ما يحكى عنها من الحذق والذكاء: أنها شهدت عند قاضي مكة هي وأخرى [3] مع رجل، فأراد بأن يفرق بين المرأتين، فقالت له أم الشافعي: (ليس لك ذلك، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى**﴾[4].

قال الحافظ ابن حجر: (وهذا فرع غريب، واستنباط قوي)[5].

*وكان جعفر بن يحيى وزير الرشيد أرفق الناس برياضة القول، وأعرفهم بفنون الكلام، وكان إذا عقب رسالة، أو وقع تحت كتاب

(١) طبقات الأدباء (٣٦٨/٦) (المجموع) للنووي (١٤/١).
(٢) طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي (١٧٩/٢).
(٣) هي أم بشر المريسي كما في (السابق) (١٧٩/٢).
(٤) سورة البقرة: آية(٢٨٢).
(٥) (٤) (توالي التأسيس) لابن حجر ص (٤٦) .

فإليه مباءة البلاغة، ونهاية الإيجاز، حتى لقد يتدافع الكتاب على بابه، فيشترون من حجابه كل توقيع بدينار.

(كل ذلك ورثة جعفر عن أمه لا عن أبيه)[١].

وقال رجل من العباد لأمه: يا أمه، (ذريني لله أتعبد له، وأتعلم العلم) فقالت: (نعم) فسار حتى تبصر، ثم عاد إليها فدق الباب، فقالت: (من؟) فقال لها: (ابنك فلان) قالت: (قد تركناك لله، ولا نعود فيك)[٢].

كذلك كان النساء في ذلك العهد الكريم مبعث كل شيء في نفوس أبنائهن، والأمر في ذلك ما قال رافع بن هريم:

فلـــو كنـــتم لمكيســـة لكاســـت

وكـــيس الأم يعـــرف في البنينـــا

أما بعد:

فأولئك هن الأمهات اللواتي انبلج عنهن فجر الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصدعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه.

لقد كانت الأم في عصور الإسلام الزاهية، وأيامه الخالية، مهبط الشرف الحر، والعز المؤثل والمجد المكين، وصدق الشاعر:

الأم مدرســـــــة إذا أعـــــــددتها

---

(١) البيان والتبين (٥٩/١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦٦/٤) بتصرف.

أعـــددت شـــعباً طيـــب الأعـــراقِ

الأم روض إن تعهـــــــــده الحيـــــــا

بـــــالري أورق أيمـــــا إيـــــراقِ

الأم أســـــــتاذ الأســـــــاتذة الألى

شـــغلت مـــآثرهم مـــدى الآفـــاق

***